من أهم الملامح الفنية في

الحديث النبوي

د. صابر عبد الدايم

حين نرصد الملامح الفنية في الحديث النبوي لنستظهر الأسرار التعبيرية، واللوحات التصويرية..، فإن هذه المحاولة تدرك أن المصطفى ﷺ أوتي جوامع الكلم، «وأنه لا ينطق عن الهوى»، وأنه «علمه شديد القوى».

فالملامح الفنية في الحديث النبوي ليست صنعة لفظية، وليست خيالاً تصويرياً، يمليه الشعور، ويشكله الإحساس الفردي، فالمعنى والمبنى يمتزجان في الحديث الشريف، والفكر والأسلوب يتعانقان فيه. ليقدما للبشرية المنهج الإسلامي السديد المنبثق من هدي القرآن العظيم.

فالحديث النبوي يعد في القمة من البلاغة العربية. وهو نموذج فريد للبيان العربي الدال المفيد ... ولا غرو؛ فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى..﴾.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيما﴾.

الرافعي وبلاغة الرسول ﷺ:

وقد وصف الرافعي بلاغة الرسول ﷺ وصفاً رائعاً ينمّ عن إيمان عميق بالإسلام ونبيه محمد ﷺ يقول:-

«هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها، وحُسِرت العقول دون غايتها، لم تصنع، وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلّف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة.

ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وان لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله.. محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة -محذوفة الفضول. حتى ليس فيها كلمة مفضولة.

وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي من سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ(١).

فالرافعي .. في وصفه لبلاغة الرسول ﷺ ولأسلوبه - أديب يعرف قيمة الكلمة المؤثرة- وأولى دلائل هذا التأثير أن أفكار الآخرين تخضع لها - لأنها بلغت من الجودة مبلغاً لا تسمو إليها بلاغة بشرية مهما بلغت رقياً وكمالاً. حيث ابتعد بيان المصطفى ﷺ عن التكلف، وابتعد عن الصنعة ، التي كثيراً ما يلجأ إليها المفتنون بأصول البيان. والمبدعون في ساحات الكلمة .. طلباً لارتقاء أساليبهم، وأملاً في سمو أفكارهم.. فإذا بهم إلى السفح مرتدون. لأنهم خالفوا الفطرة الخالصة .. أو ابتعدت بهم الأسباب عن ارتياد آفاقها الصافية.

الحديث النبوي شعاع من البيان القرآني العظيم:

أما ألفاظ النبوة... فمنبعها القلب المتصل بجلال الخالق، .. فهي لا تصدر إلا عن صدق، ويقين، لا يشوبها زيف ولا يكدرها رياء.. فهي صورة سوية لنفس صاحبها ﷺ.

وحين تتجسد هذه الألفاظ في صورة مادية.. يتفوّه بها لسان المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.. نراها في أرقى درجات الكمال..

فاللسان العربي المبين الذي يُبلِّغ القرآن عن رب العالمين.. حين يتحدث للناس في شؤون دنياهم وآخرتهم لن ينفصل عن الجو القرآني.

الجاحظ والبلاغة النبوية:

يقول الجاحظ «وستَذْكُرُ من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يشاركه فيه عجمي، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد، مما صار مستعملاً، ومثلاً سائداً».

والجاحظ يصف كلام النبي ﷺ موضحاً السمات الفنية للحديث النبوي قائلاً: «هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه. وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ. ورغب عن الهجين السوقيّ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وسدد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً، ولا أجل مذهباً، ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح من معناه ولا أبيَن عن فحواه من كلامه ﷺ(٢).

رواية الحديث ، والإحساس بخصائصه الفنية عند الصحابة:

وهذا الحديث النبوي الذي وصفه الجاحظ -وعُنى به علماء الحديث.. كان الصحابة يروونه في حياة المصطفى ﷺ وكان هو نفسه يحثهم على ذلك، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله «اللهم ارحم خلفائي: قلنا يا رسول الله. ومن خلفاؤك؟

قال: الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس(٣)».

وكان كثيراً ما يقول للوفود احفظوا أحاديثي وأخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر،

وكان الصحابة يعرفون تفوق النبي ﷺ في بيانه.. ومعرفته بلهجات العرب- وبغريب مصطلحاتهم وألفاظهم.. ودقائق معانيهم وأفكارهم، يقول أبو بكر لمحمد ﷺ لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك «أي علمك» فقال عليه الصلاة والسلام«أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وقال النبي ﷺ «أنا أفصح العرب».

وقال أيضاً: نضر الله أمرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها. وأداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(٤).

من أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي:

أولاً - الإيجاز:

وذلك مصداقٌ لقوله ﷺ «أوتيت جوامع الكلم، ومن جوامع كلمه ﷺ قوله عن أبي سلمة عن أبي هريرة: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»(٥).

والثراء اللغوي الذي يفتح المجال أمام أكثر من معنى يكمن في كلمة «أحصاها» فالإحصاء في اللغة على ثلاثة أوجه:

أحدها: الإحصاء الذي هو بمعنى العد، كقوله تعالى:﴿**وأحصى كل شيء عددا**﴾.

والثاني: بمعنى «الطاقة» كقوله سبحانه وتعالى:﴿**علم أن لن تحصوه**﴾ أي لن تطيقوه.

والثالث: بمعنى العقل والمعرفة. ويروى عن ابن عباس أنه قال: «أحصيت كل القرآن إلا حرفين: يريد أدركت علمه وعقلت معناه.

ويقال: فلان ذو حصاة: إذا كان ذا عقل وتحصيل، قال الشاعر:

وإن لسان المرء ما لم تكن له

حصاة على عوراته لدليل(٦)

قال أبو سليمان: فمن حمل الخبر على معنى الإحصاء الذي هو العد قال: «إن معناه أن من يعدّ هذه الأسماء ذاكراً الله عز وجل ومثنياً عليه بها، واستدل في ذلك بأن التسعة والتسعين لما كانت عددا من الأعداد ثم عطف بالأحصاء عليها علم أن المراد به إحصاء العدد دون غيره.

ومن حمله على الاطاقة قال: معناه أن يطيق القيام بحقها في معاملة الله تعالى بها، ومطالبة النفس بواجبها فيخطر بقلبه معنى العفو والمغفرة إذا سماه عَفوّاً وغفورا، فيرجو مغفرة الله وعفوه، ويحذر نقمته إذا قال: «المنتقم». ويثق بما وعد من الرزق، وتطمئن به نفسه إلى ما ضمنه منه إذا قال: «الرزاق» وإذا قال: «رقيب» راقب ربه، وعلم أنه مطلع على سره. إلى ما يشبه ذلك

★ الرافعي ★

من الأمور التي تقتضيها معاني هذه الأسماء.

* وأما من تأوله على الإحصاء الذي هو العقل والمعرفة فإن معناه: من عرفها وعقل معانيها وآمن بها استحق دخول الجنة.

وهذه الأقاويل الثلاثة كلها متوجهة غير بعيدة والله اعلم(٧).

* ومن جوامع كلمه ﷺ أنه قال: «رواية عن أبي هريرة» إذا ثوّب بالصلاة فأتوها وعليكم السكينة. فما أدركتم فصلوا.. وما فاتكم فأتوا(٨).

قوله: «ثوّب بالصلاة» أي دعى إليها والأصل في التثويب أن الرجل إذا جاء فزعاً أو مستصرخاً لوح بثوبه .. وكان ذلك كالدعاء والإنذار، ثم كثر ذلك حتى سمى الدعاء تثويباً، قال الشاعر:

يأوى إلى ساحته المثوبُ

وقال ذو الرمة:

وإن ثوّب الداعي لها بآل خندف

فيا لك من داع مُعزّ ومكرم

والعامة لا تعرف التثويب في الأذان إلا قول المؤذن في آذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، قال وإنما سمى هذا القول تثويباً لأن المؤذن يرجع إليه مرة بعد أخرى.

يقال: ثابت إلى المريض نفسه إذا رجعت إليه قوته وثاب إلى المرء عقله، ومنه اشتق الثواب. وتأويله ما يثوب إليه من فضل الله في جزاء الأعمال الصالحة.

وبه سميت المرأةثيباً، وذلك لأنها تثوب إلى أهلها من بيت زوجها.

ثانيا- الصورة الأدبية الدالة الموحية عن طريق التشبيه:

ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً .. فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها، فجعل ينزعهنّ ويغلبنه فيقتحمن فيها؛ فأنا آخذ بحجزكم عن النار وانتم تقتحمون فيها».

«إننا نتخيَّل هذه الصورة المكتملة الجوانب. ونتمثلها أمامنا نابضة المشاهد، أفعالاً وحركات سريعة متلاحقة. وصراعاً ومغالبة بين الهوى والهدى، وحرارة ولهبا، وأشعة وظلمة، ونتمثل ما وراء المحس من نوازع متقابلة، يدفع بعضها إلى الخير المنجي، والآخر إلى الشر المردي، فينتقل إحساسنا إلى حالنا وحال النبي ﷺ فنرى أنفسنا في صراع الهوى الغالب للهدى الرحيم، ذلك الفراش الأحمق الذي يضحي بالحياة في اندفاع قاهر، ثمناً غالياً للامح براق،

فإذا اجتذبه مَنْ بالمؤمنين رءوف رحيم إليه حفظاً على حياته غلبه الهوى على نفسه فأقتحم المهالك.

وهنا نحاول أن نفهم هذه المفارقات. وأن نقبل حركاتنا وأنفاسنا مع هذا الساهر الحريص، فنرى كل كبيرة ناراً تغرينا بالبريق يصرفُنا إليها الهوى، ويجذبنا منها المصطفى ﷺ يأخذ بحجزنا مكررا الزجر، مقررا الحرمة، مؤكداً النداء، ما أشقانا وما أتعسنا حين نغلبه فنقتحم النار.

وقد عمقت الصورة هنا وسائل أسلوبية كثيرة تنبىء عن فصاحة المصطفى ﷺ فهنا كرّر المثل مضافاً إلى نفسه الكريمة مرة في ياء المتكلم «مثلي»، وإلى أمته أخرى في ضمير الخطاب؛ لأن الصورة تعرض حالين مختلفين، حال حكيم رءوف. وحال أحمق جامح؛ فليست حاله عليه السلام حال أمته، إذا استهواها الشيطان فغلبها، ولهذا كان الكلام على اللف والنشر المرتب، والذي يلقب فيه التشبيه بالملفوف، وقد حصل الاكتفاء بالتكرار عن التفصيل في الآخر.

وليس لفظ «مثل» في البيان الكريم أداة التشبيه، إذ هو بمعنى الحال والصفة، وإنما الأداة الكاف. والجمع بينها وبين مثل للدلالة على تشبيه الهيئات والأحوال تمثيلاً، إذ لو دخلت الكاف على «رجل» لتوهم بادىء الرأي مشبهاً به أفراداً.

وارتباط جواب «لما» بشرطها يشير إلى ارتباط السبب بالمسبب في الوجود. ووصف الدواب المشار إليها للتحقير. إشارة القريب الداني المنزلة بالموصول، وصلته تدل على العادة والطبع الغالبين، اللذين هما بحاجة كبيرة إلى التهذيب والمقاومة والكبح، وتكرار الفعل «تقع» مرة صلة ومرة جواباً. يشير إلى الاستسلام وعدم التدبر لما هو معتاد، والنظر إلى ما يجري من الردى.

وقد اقتصى شروع الدواب في الوقوع شروع المستوقد، وترادفت الأفعال مضارعة للدلالة على تجدد الفعل، ومعاودة الصراع من جانب، ولاستحضار هذه الصورة في أذهان المخاطبين من جانب آخر، كأنها الآن تحدث، حتى يزيدوا بها استيقانا، وبمدلولها معرفة، أما العبارة الأخيرة التي تصرح بوجه المماثلة من جهة الرسول وأمته «فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فهيا: ففيها جملتان اسميتان متقابلتان تدلان على الثبوت من جهة المضارعية فيه، وهذا يدل على ثبوت الصراع وتجدده زيادة حرص ورحمة من جانبه عليه السلام. وضعف وانصياع للموت من جانب المخالفين»(٩).

ومما يزيد الصورة هنا تأثيراً مجيئها في أسلوب «القصر حيث جاءت «إنما» في أول الحديث الشريف، لتصبح الصورة واقعية.. ويظل الصراع دائراً.. بين حرص المصطفى -عليه السلام- على نجاة امته وبين تغلب الهوى على كثير من أفراد هذه الأمة؛ حتى يصل بهم هذا الهوى إلى النار التي يتقلبون فيها في حياتهم وآخرتهم..، وعطف الجمل هنا بالفاء.. يوحي بترتب الأحداث، ومجيء الحديث في أسلوب القصة المتعاقبة أحداثها المركزة المكثفة، فهنا قصة الأجيال كلها -وهنا تشخيص لأدواء النفوس- وتصوير لرحمة المصطفى ﷺ وحرصه على مداواة هذه الأنفس المرضى.

والتعبير بالفعل «يقتحمن» يدل على الإصرار من الجانب الآخر على الوقوع في حمأة الباطل..، وقول المصطفى -عليه السلام- «وأنا آخذ بحجزكم » يصور مشهداً من مشاهد الصراع الدائم، وبرغم إصْرَار الضالين على ما هم فيه.. يحرص الرسول على صدهم عن الوقوع في ظلمات الاثم.. والتردي في أوديـة النيران، وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا. فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾.

وتمتد هذه الصورة عبر الأزمنة والأمكنة.. وتسرى في ضمير الأجيال.. ويظل البيان النبوي

الثراء اللُغوي في الحديث النبوي يفتح المجال أمام أكثر من معنى

يأخذ بحجز الجماعات التي يتملكها الهوى. ويغلبها الشيطان.. فإذا بها تلمح ضوء النجاة يبرق في كلمات المصطفى ﷺ وفي ما جاء من الآيات البينات وحياً عن ربه عز وجل وصدق عليه السلام وهو يرشد الأمة في كل زمان وفي كل مكان.. إلى ميراثهم الحقيقي .. وهو «الكتاب والسنة..» ففيها العصمة من الزيغ والضلال وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا أمراً بيّناً كتاب الله وسنة نبيه..

ثالثاً - التصوير الفني في ثوب «الاستعارة»:

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، ودخيل صدره، فليطعه ما استطاع..» فقوله عليه الصلاة والسلام: «وثمرة قلبه» استعارة. لأن المراد بها خالصة صدره، أي بايعه بطاعة صحيحة، وبنية غير مدخولة، فشبه عليه الصلاة والسلام ذلك بالثمرة لأنها لباب كل شيء، وخالصته وصفوته، وخلاصته.

ومن المجاز النبوي قوله عليه السلام «من كسب مالاً من تهاوش أنفقه في نهابر» وفي رواية من نهاوش.. المراد بالنهاوش ما قاله أهل العربية: اكتساب الأموال من النواحي المكروهة .. والوجوه المذمومة، ومن غير حِلها ولا حميد سبلها، وذلك مأخوذ من نهش الحية، كأنها تنهش من هنا ومن هنا، لا تتقي منهشاً ولا تجتنب ملبساً، وذلك ضد قوله عليه الصلاة والسلام على أحد التأويلين: «إطلبوا المال من حسان الوجوه» أي من وجوه المكاسب الطيبة التي يحسن الطلب منها، ولا يذم التعرض لها، وقال أبو عبيدة «هو مهاوش بالميم يريد أخذ المال من التلصص نحو لصوص بني سعد.

وقال غيره مأخوذ من الهبوش، يقال:

هذا الإعجاز البلاغي في الصورة الأدبية يجد في المشاهد والأفعال المتحركة!

تهاوش القوم إذا اختلطوا. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم وهوشات الأسواق»، أي اختلاطها وفسادها. والميم زائدة في بناء الكلمة، والمعنى راجع إلى ما قاله أبو عبيدة لأن الأموال المأخوذة من التلصص موصوفة بالاختلاط في أنفسها، والآخذ بها موصوف بالتخليط فيها.

وقوله عليه الصلاة السلام« أنفقه في نهابر. أي في الوجوه المحرمة .. التي يضيع الإنفاق فيها. ولا يعود إليه نفع منها، وذلك مأخوذ من نهابر الرمل واحدتها نهبورة» وهي ما يطلق عليه الآن بحار الرمال، وهي وهدات تكون بين الرمال المستعظمة، إذا وقع البعير فيها استرخت قوائمه. ولم يكد يتخلص منها.

ويقال: هي حفر بين الآكام، يصعب السلوك بها، وتكثر المعاثر فيها؛ فكأنه عليه الصلاة والسلام، شبه ما يكسب من الحرام وينفق في الحرام.. بالشيء الواقع في عجمة الرمل، لا يرجى وجوده، ولا ينشد مفقوده، ومع ذلك فقد أرصد لنفقه أليم العذاب، وعظيم العقاب(١٠).

رابعاً - تشخيص الظواهر الكونية والكائنات الطبيعية:

ومن ذلك الأحاديث التي تعبر عن القيم النفسية، وتصور الشعور تجاه الظواهر الكونية تصويراً صادقاً، لما لهذه الظواهر من دور سام في الدعوة الإسلامية .. وفي مقدمة هذه الظواهر «الجبل» فجبل الصفا والمروة يرتبطان بشعور التضحية والحنان والرعاية الإلهية في نفس المسلم. ولها في الوجدان التاريخي والإنساني والإسلامي أثر لا يمحى، فهما يذكران الإنسانية كلها بقصة السعي بين الصفا والمروة بحثاً عن الري حتى يُطْفأ ظمأ إسماعيل عليه السلام..، وجبل الرحمة.. في عرفات له في نفوس المسلمين مكانة سامية لارتباطه بشعيرة الحج..

ومثل ذلك جبل أحد.. فقد دارت رحى المعركة بين المسلمين وبين المشركين على متن هذا الجبل .. وبين أوديته وشعابه.. ونسبت الغزوة إليه فسميت غزوة «أحد».

ويمكن أن تدب الأحاسيس في كيان هذه الظواهر.. وتطوف بها مشاعر الأحياء .. فتطرب.. وتغضب.. وتهتز .. سروراً وفرحاً... أو خوفاً .. وقلقاً..، وصدق الحق سبحانه إذ يقول: **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا﴾** ولذلك لا تعجب حين يهتز جبل أحد حينما وقف عليه الرسول عليه السلام -وأبو بكر وعمر وعثمان ، فيقول له المصطفى عليه السلام: أثبت أحد.. فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه».

فما مصدر هذا الحب... وهل يحب الجبل لذاته؟ .. وما أمارات هذا الحب؟..

إن الجبل من الظواهر الجامدة؛ وفي الأساليب العربية كثيراً ما يخاطب البلغاء هذه الظواهر.. ويشخصونها، وكأنها كائنات حية تبادلنا الود..، وتصغي لنجوانا، ونبثها همومنا وشكاوانا.

ومثل هذا كثير في الشعر، والنثر، وهو دليل على الصحة النفسية والتذوق الجمالي، وبرهان على الوفاء الغامر لجميع المخلوقات.

والمدينة: أهلها ورباعها دروبها، وشعابها وجبالها ورباها. آوت الرسول ونصرته، وأعز الله بها الدين وحمى الرسالة وحصن الدعوة . فكل ذلك منها حبيب إليه عليه السلام، و «أحد» جبل، والجبال. أول ما يرى القادم، وهي البواكير لرؤية عين القاصد، ويتنزل عندها الشوق، ويستهدف وجهها الحنين، فتظل وإن نأى عنها أول ما أطفأ الوجد وبشر بالوصول. فإذا أحب الرسول «أحداً» لهذه المعاني الإنسانية، أو لأسرار سواها غيبية فلا عجب لهذا الحب»، وإذا أضفى على «أحد» ما زاد من حبه له، وإحساسه به حتى رآه مشاركاً له فيه. متجاوباً به معه، فلا غرابة في هذه الرؤية. ولا كذب في هذه العبارة، لأنها لغة الحب، وبيان العاطفة، الذي لا يغني غناءه تغيير الواضع للفظ، لنفسه في الدلالة.

فإذا تصور الرسول الأمن والسلام في جوار الجبل إيناسا، والاستبشار برؤيته بشاشة منها وحباً، فصوره صورة من يحب، وشخصه شخص من يعي، فذلك آية التذوق وسلامة الوجدان، وصحة العاطفة. فيما يعود بالخير على الدين، ويزيد الناس حباً للمدينة ووفاء للأنصار. لأن حب الدار من حب الجار. ذلك الذي فاض منه الحب لرسول الله ﷺ على الجماد فأحبه.

هذا التقرير المؤكد لحب الأنصار رسولهم. وحب الرسول أنصاره الذين من أجلهم أحب المدينة وأحب كل شيء فيها، وآنس لجبلها أُنْس الحبيب بالحبيب يقول عنه علماء البيان أنه مجاز بالاستعارة، التي شبه فيها الجبل بالمحب بدلالة اثبات العمل به وإسناده إليه، وهذا الإسناد هو الذي يسبح بالخيال تلك المسابح ، ويذهب به يستيطن ما وراء العبارة لأنه يلفظ بلفظ موح بعيد الغور.

والاستعارة المكنية عِنْدَ البيانيين تتضمن استعارتين، أولاهما المكنية، لأنها دلالة فعل الحب المسند إلى الجبل في العبارة على الإنسان المحب دلالة اللازم على الملزوم، ومسوغ هذا الإسناد مشابهة الجبل للمحب المحذوف مبالغة في اتصافه بصفته حتى لم يفترق عنه.

ثانيتهما «التخييلية» وهي إثبات فعل المحب المشبه به للجبل المشبه «لأنها تخيل للسامع إنسانية الجبل وحبه، وتكسبه ما لا يمكن أن يكون له على سبيل التحقيق»(١١).

خامساً - الكناية :

والكناية من أبدع المسالك البيانية. والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشىء عن المعنى. تعبيراً مظلاً هادفاً موجزاً، يخفى تحت ظلاله لطائف مراده.

والرسول ﷺ يستعمل أسلوب الكناية للدلالة على المعاني دلالة ألطف وآكد وأوجز من دلالة الحقيقة المحضة.

ومن الأحاديث التي سبقت في أسلوب الكناية ما روي عن أبي هريرة وابن عمرو رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ «يكون في آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوب الذئاب».

يقول الله تعالى: ﴿أبي تغترون أم علي تجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تذر الحليم فيهم حيران﴾(١٢).

أولئك هم المراءون الذين يبطنون ما لا يظهرون، فيكون في ظاهرهم الرحمة وفي باطنهم العذاب، ويسمع الناس منهم كلاماً معسولاً يخدعهم . يجعلونه كحبالة الصياد تفرش للحَب، ولفظ الختل يدلُ على خداعهم، وهو واقع على الدنيا والدين. ومعنى ذلك أنهم جعلوا الدنيا بأهلها صيداً، وجعلوا الدين أداة يخدعون بها الصيد؛ لأنهم يقولون في اللغة ختل الذئب الصيد: تخفى له فهو خاتل.

فعبارة الحديث «يختلون الدنيا بالدين كناية عن فقد قلوبهم ما أجادوا التظاهر به»، والمعنى الظاهر يؤكد هذا المعنى مرة أخرى، وبصورة أخرى، هي أقرب من التقرير لارتباطها بالحس.

أرأيت إلى قطيع الشاه يسرح آمناً وديعاً خلف الراعي؟

أرأيت إلى كثافة الصوف على جلده يخب فيه من اللين؟

لقد فتكوا بالضأن ليلبسوا جلودها فيخدعوا الناس بلينها .. هل يلبسون جلود الضأن تقشفاً وورعاً. وهضم نفس ووراعة؟ لا .. إنما يلبسون للناس لا لأنفسهم.

هل يلزم من تصورك تلك الصورة إلا النفاق والرياء والخديعة، وأنهم ذئاب في صورة الخراف؟

هذا هو المعنى الذي تكرر في الجملة الثالثة بصورة أوضح في ذئبية القلوب، تستتر بجلد الضأن لتخدع وتفتك.

إن الاستفهام في قوله ﴿أبي تغترون أم عليّ تجترءون﴾؟ وينادي على بلادتهم وحمقهم، حين انخدعوا من الشيطان بهذه الألعوبة. فأتخذهم جلد الضأن لذاته، يخدع به الأنام ويفتك.

إنهم أداة الشيطان خادعين ومخدوعين.

ويؤكد الله بالقسم على أن يجازيهم جزاء لا يدري كنهه، ويعذبهم عذاباً لا يحاط به ، عبر بالكناية التي يسبح خلفها العقل والخيال معاً: حيث لاوصول إلى تحديد «فتنة تذر الحليم فيها حيران» الفتنة «هنا» نكرة في مقام التهويل والترهيب؛ وما أعظمها فتنة، ثم هي موصوفة بالجملة الفعلية. وضميرها قد أسند إليه الفعل المتعدي إنذاراً بالخطورة؛ ثم على من وقع الأثر؛ إنه وقع على الحليم العاقل. المتأمل؛ وما أثرها عليه؟ إنه الحيرة التي لزمته للفتنة التي لزمتهم. أليس الوصف بالألف والنون. عدولاً عن «حائر» يَدُلّ على اللزوم؛ أليس اتصاف الحليم بذلك دليل فظاعة الفتنة؛ وهكذا ترسم الصورة جزءاً، جزءاً. وهكذا تلتحم وتتماثل. وهكذا تكون الكنايات من أروع ما يتخذ أفصح العرب من وسائل البيان.

ومن الكنايات أيضاً هذه الأحاديث.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «خياركم ألينكم مناكب في الصلاة».

* عن معاوية -رضي الله عنه- قال: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة».

سادساً - القصص النبوي وخصائصه الأسلوبية المصورة لواقع المجتمع:

إن القصة فن التشويق والامتاع. وهي تصور واقع الحياة في صورته الخيرة أو الشريرة، وقد تصور الماضي بدافع من التحليل الفني له

الكتابة في كلام المصطفى تعد أروع ما اتخذه العرب من وسائل الإفصاح والبيان

البلاغة في الحديث النبوي تقدم طوق النجاة أمام من جرفهم تيار الضلال

حتى يراه الحاضر.. ويتمثل دروسه، وقد تصور القصة ملامح المستقبل عن طريق رسم شخصيات وقراءة الأحداث. وتحليل المواقف. والطموح إلى نموذج مثالي للحياة .. حين يفسد الواقع وتغيب أصْداء الماضي.

وإذا كانت القصة تتنوع إلى رواية .. وقصة طويلة .. وقصة قصيرة وأقصوصة .. وكل نوع له خصائصه .. وأهدافه ومزاياه..فهذه الأنواع تخضع لمزاج الكاتب ومعتقده في الحياة. وبيئته التي يعبر عنها. وهي لذلك تحمل من العيوب أكثر مما تحمل من المزايا.

«أما القصص النبوي فهو قصص قصير هادف، ينبع من التصور الإسلامي، والواقع التاريخي، ويمثل الصراع بين قوى الخير والشر في النفوس يزكي جانب الخير ويحث عليه عن

طريق غير مباشر. وهو بيان جزاء».

وهـذا القصص النبـوي «يعتمـد على المقدمات القصيرة الخاطفة أحياناً. وقد تبدو العقيدة في المقدمة، ويتخذ من تصعيد العقد وتتابع المفاجأت وظهور الخوارق تشويقاً للسامع والقارىء، وإثاره وإلهاباً للمشاعر والأحاسيس.

كما ترى الحوار والحكاية يشتركان في تكوين المشاهد تكويناً رائعاً:

وإن كل قصة على قصرها يمكن أن تحول إلى موضوع تمثيلي طريف، له خطره في خلق الوعي الديني وتقويم القيم السلوكية في المجتمع.

ويلاحظ أن القصص النبوي. خال من الشطحات المستنكرة، أو جموح الخيال، شأنه شأن قصص القرآن. في إحكام المشاهد التي يتحقق بها الهدف فالقصة النبوية امتداد لمضمون قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ و ﴿ما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم﴾، فهي إلهام من الحق سبحانه بما يقرر به العقيدة، ويقوم به السلوك.

«وبعض القصص يتناول المستقبل. كما في قصص الفتن».

وآخر منها يتناول تجربة ذاتية لجزء قصة حياة مثل حديثه عليه السلام عن نفسه.

أو يتناول ألواناً غيبية شوهدت مشاهدة ذاتية كحديث الإسراء.

والقصص النبوي مسرح لأنواع النفوس، وألوان التجارب التي تمر بالرجال، والتي تمر بالنساء. كتصوير المجتمع النسوي في قصة النسوة اللاتي جالسن أم زرع، وعبارة كل منهن تصور ضرباً من ضروب المعاشرة، ولوناً من ألوان الحياة النفسية بين الأزواج.

والأحكام التي تستخلصها من قصصه عليه السلام؛ والأهداف التي تدور حولها. هي ككل بيانه شريعة يجب الانتفاع بها.

والأسلوب فيها جميعاً هو أسلوب القصة الذي يحلو فيه الإطناب بتكرار بعض العبارات ولكنه مع ذلك كما شاهدنا موجز محبوك؛ جيد الفصل والوصل. متماسك النظم دقيق الاشارة؛(١٣).

وجانب الإيحاء والرمز في القصص النبوي من أدق خصائصه. فهو لا يسهب في الوصف. ولا يعنى بتحديد الزمان ولا المكان. وإنما تصبح القصة نموذجاً سلوكيا.. يتكرر في كل زمان وفي كل مكان. وثمرة القصة ونتيجتها ضوء إيماني يسير في وهجه من ينشد طريق الحق، ويتعظ به من اتبع هواه فأضله الله. فهو.. تصوير لأدواء النفوس البشرية، وعلاج ناجع لهذه الأدواء، في ظل المنهج الإسلامي السديد.

أسلوب الحوار في الحديث النبوي يجيء تشويقاً للمسلم وترغيباً له وتعميقاً للمنهج التربوي

وأسلوب الحديث النبوي يجيء في قالب الحوار -تشويقاً للمسلم وترغيباً له، وتعميقاً للمنهج التربوي في النفوس، حتى تسمو لغة الحوار بين المسلمين، وتنشأ بينهم الصلات الحسنة، وكان أسلوب الحديث القائم على الحوار جزءاً من المنهج الإسلامي في ضرورة التواصل بين المسلمين، حتى تقوى الأمة الإسلامية، وتتحد كلمتها، وتصبح- كما قال عز وجل-.. أمة واحدة.

الهوامش

(١) إعجاز القرآن للرافعي، ص ٥٧٩ .

(٢) انظر: البيان والتبين للجاحظ ص ٢٢١، واعجاز القرآن للرافعي ص ٢٨٢ .

(٣) مقدمة العسقلاني - نقلاً عن د/ شوقي ضيف في العصر الإسلامي ص٣٦ .

(٤) رواه أبو داود والترمذي والدارمي وابن ماجه وأحمد.

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٤/ ٢٠٦٣، والترمذي في الدعوات ٥/ ٥٣٠ وغيرهما.

(٦) قيل .. هذا البيت لطرفة وقيل لكعب ابن سعد الغنوي.

(٧) غريب الحديث جـ١ ص ٧٣٠ للإمام أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي تحقيق د/ عبد الكريم الغرباوي ط مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.

(٨) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ١/ ٤٢١ .

(٩) أنظر «الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ١٥٦-١٥٨ د/ عز الدين علي السيد. دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة، رقم إيداع: ٢٩٣٤ - ١٩٧٣م.

(١٠) المجازات النبوية للشريف الرضي، ط. الحلبي بمصر ١٩٧١ ص١٢٢،١٢٣ .

(١١) انظر «الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/ عز الدين السيد ص ١٦٦-١٦٧ .

(١٢) تيسير الوصول جـ٢ وانظر«الحديث النبوي من الوجهة البلاغية».

(١٣) ص ٤٦٢-٤٦٣ الحديث النبوي من الوجهة البلاغية.

شعر : عبد الله بن سليم الرشيد

مـن أحـــزان

الأندلس الجديدة

وهل أتاكم نبأ البحر الذي
يلملمُ الأمواج من شطآنه
ثم يعود القهقرى
ممّا يرى؟!

*

وهل أتاكم نبأُ الخصم الذين أَوْقدوا نارَ القِرى
للحقد..
والحقد -إذا اشتدّ- فَرى؟!
تفجّر الليل حواليهم جحيماً ومُدىٰ
وأمطر الموتَ
ففاضت الأرض لحوداً وردى.
ذا مهرجان الموت، هذا طقسُهُ
أَصِخْ إلى وقع خطاهُ
يخطف الأمس البَليلَ والغدا

-٢-

وتحت أقدام الجنود عشبةٌ برّيَّةٌ
يرتّلُ القيظُ عليها غيظَهُ
فترسل اللوعةَ للمزْنِ
وقد مدّتْ - تناجيه-يدا
لكنه يمضي - كما جاء - جَهاما أَرْبَدا
فَهْي متى صاحتْ به:
«أَعدْ عليَّ بهجةَ الطلِّ وإرهاصَ الندى»
يُرجّع الصوتَ الصدى:
«..... ندىً ..... ندى ..»
حتّى الصّدى يَبْخَسُها
حتّى الصَّدى!

-٣-

هذا الذي تَرَوْنَهُ
وجهٌ من الشُّؤم بَدا
يجوسُ، يجتاح المَدى
يَمُجُّ حقداً أسودا
فإنْ بدا خيالُهُ
يرقُص في أحداقكمْ
مُقَهْقهاً معربدا
لا تَطْرَبوا،
فإنّها كرقصة الزَّنْج إذا سيق الأسيرُ للرّدى.

-٤-

لن يذهب التاريخ أشلاءً
ولا الحقُّ سُدى
غداً عليكِ تتدلّى أنجمُ الفجر سَناءً وهُدى
وفي غدٍ - يالَغَدٍ-
سوف تطيشُ صولةُ البَغْي ويرتدُّ العِدا
فغالبي..
فربّما تغلبُ قسوةَ الجفاف رقّةُ النّدى
وربّما
يَنْبَجِسُ الصخرُ نَميرا وجَدَا
حتى يفيضَ في سكينة الليل الحُدا.